

الفنان إسماعيل خياط في معرضه الأخير

طبقات أختتام.. من طيور وأقنعة

خالد خضير الصالح

الشيء تكون قد تركت علامة لا يمكن إزالتها . فليس من الضروري للفنان، كما يؤكد هنري ماتيس، أن يمتلك داخل نفسه إيضاحاً لذلك الشيء، الذي يمتلكه عميقاً داخل نفسه، وليس ذلك الشيء الفاضل سوى تلك (الحقيقة التصويرية) التي توضع بالتقابل وبالانضاد تماماً أمام (الحقيقة الحكائية)؛ لأن الرسام معنى بتكوين الأولى وليست الثانية، وبذلك تكون تلك العلامة بطريقة لا يمكن محوها مهما حاول الرسام الإيغال في المجدرات. لقد كانت إقامة معرض الرسام العراقي إسماعيل خياط في عمان مؤخرًا مناسبة جعلتني أفكر في رأي كنت صنفته على أساسه الرسام العراقي الكردي المقيم في بنسلفانيا صدر الدين أمين، فأعيد تصنيفه هذين الرسامين باعتباريهما (سقا) مستقلا من الرسم العراقي؛ حينما تشكلت لديهما أنماط من ال (علامات) الراسخة المستقرة في ذهنهما لل (شيء) بعد أن أخضعها لمختلف ضروب تجاربهما المختبرية التي تضمنت قمعاً للبعض من تلك العناصر، وتفعيلاً للبعض الآخر ليبتسك بذلك نمط آخر محايث من الرسم النسميه تجاوزا (تجريدياً)؛ ذلك انه يتخذ نسقا (ثالثا) بإصرار لا يلين، لتكون أشكاله موتيفات لأنماط شكلية ذات طبيعة خطية صلبة من أشكال هيكلية لمشخصات: كأنات شديدة الاختزال، وبشر متوحشين، وأقنعة، وسلاحف وأسماك، وحياتان منخرطة في رقصة كونية يلتهم بعضها بعضا. وبذلك فهي تؤسس لنمط ثالث من الرسم (التجريدي) العراقي، لتنتهي كل تلك الاتجاهات التجريدية الثلاثة إلى تأسيس (نظام إشارات) من تلك المهيمات الشكلية التي تهيم على ذاكرة المبدع، وتخضع لها كل الأشكال التي يرسمها، من خلال الفن (ومشخصاتها). وبين النظام الإشاري الذي أسسه الرسام طيلة تجرته الماضية: فكان هؤلاء الرسامون (إسماعيل خياط، وصدر الدين أمين، وكريم رسن) في مرحلة سابقة من تجربته) ينتجون ويعيدون إنتاج إشاراتهم الهيكلية

الخطية بإصرار لا يلين، باعتبار تلك الهياكل (جرثومة) يؤسسون عليها فن الرسم ويستلونها من أزمان غائرة في القدم ولكنها مازالت صالحة حتى الآن . وكانت أيقونات هاشم حنون إشارات لونية غير خطية تنبع من مشخصات المدن التي علقت في ذاكرته، وهيمنت عليها، وبدت إشارات نزار يحيى، وغانان غائب، وسامر أسامة أيقونات مسطحة تتخذ شكل اللوحة الخارجي الذي لم يكن دأباً مستطيلاً معتدلاً ، ولا صلبة له بمشخصات الواقع، أيقونات انبعثت من تراكم تجارب التشكيل العراقي منذ عقود، توجتها تجارب رسامي العقد الستيني وما تلاه من أجيال .

يقول غاستون باشلار "المادة هي المبدأ القادر على عدم الاكتراث بالشكل، وليس مجرد عمز عن النشاط الشكلي... وحيث القابلية

على التقييم في اتجاهين: العمق والانطلاق. إذا ما تعمقت، بدت وكأنها سر غامض، وإذا ما انطلقت، بدت وكأنها معجزة، قوة لا ينضب معينها".

كلما كنا نكتب عن تجربة الرسام إسماعيل خياط، كانت تهيم علينا موجّهات القرائية، تلك الموجّهات التي كان يبثها عبر ما تفرّضه موضوعاته الأثيرة لديه منذ عدة عقود. فلا نستطيع منها فكاًكا؛ وبذلك نكون في كل مرة، سواء بإرادتنا أو رغماً عنا، منساقين إلى ما استنه غاستون باشلار حينما كان يوصي باعتماد منهجية تنبع من التجربة ذاتها ، فكان الخيال ينزلق وإيانا يعود بنا إلى الينابيع الأكثر عمقا في طبقات النفس البشرية الجمعية، متجهين صوب التوهيمات البدائية، صوب "الصور الأكثر عمقا والحاحا... حيث خيال المادة ينفتح



متشابه، وهو تعبير ربما بدا وقتها غريباً إلا أنه كان وما زال يعني عندي إن الرسام رغم تشابه موضوعات وتقنيات لوحاته، كان يحاول أن ينوعها بشكل تبدو فيه وكأنها سائرة دائماً. وبطريقة مضطربة نحو الاختلاف في كل معرض من المعارض؛ الذي سبقه والذي سيعقبه، فالرسام إسماعيل خياط، يؤكد دائماً أنه لا يبحث عن (أسلوب) محدد، قدر بحثه، وبشكل متواصل عن (اللاسلوب). حيث كان يقدم في كل معرض قضية إشكالية تهرق قوانين النسق بشكل ربما يشكل قطيعة لا اختلاف فيها عما كان سائداً من أنساق وقوانين الرسم حتى وقتذاك.

٥ - يقول غاستون باشلار: "إن الماء هو المادة الأم"، ووجدت صدى ذلك في تجربة إسماعيل خياط منذ عقود وحتى الآن.

المتلقون ، وهي في أولى أطوار مراحل تمازجها مع الصورة التي تبدو وكأنها وجود، أو أقنعة، مألّتها البثور والبقع وأثار الجري. أو مساحات مألّتها الحروف والعلامات والبقع وكأنها تعاويد غامضة، أو هلوسات كتابية تتمزج فيها: الشخصيات غير المسؤولة مع الكتابة المقصودة، والتشخيص مع الغموض الشكلي الذي لا يستبين، فلا يتبقى شيء واضح، من كل هذه الخلطة السرية التي استمد منها إسماعيل خياط أعماله طيلة عقود ولم يزل؛ وبذلك تضعه ضمن أولئك الرسامين المؤمنين، بشكل لا شك فيه بوحدة خلقية، تلف الوجود وموجوداته في وحدة واحدة لا فكاك لعراها.

٤- ذكرت مرة، قبل نحو عقدين من الآن، أن لوحات إسماعيل خياط هي في حقيقتها متشابهة بشكل مختلف ، وفي الوقت عينه، مختلفة بشكل

وجدنا الضائع

المؤدية وحامل الكاميرا وماسك لاقطة الصوت ومجموعة الكادر وبلاط السوارع والمارة. واختلطت أيضا السحنات والهلجات، وانفتح الفضاء حتى البحر الذي يحده المدينة وتعداه للجانب الأطلسي. وختم الشعر هذه الرحلة: (الآن وعندما جدتكم لن ادع أبدا...؟) إن كان الغرض من هذه الصناعة بخايا متاهته، فقد حقق غرضه، لكن أهدافه المرسومة مسبقاً لم تتعد عن حسابات القرار السياسي النقابي العامة والتي واجهتنا في الفضاء الفيديوي الأخير. ولقد استطاع هذا المشروع أن يناور أو يحاور الفعل الفني بعض الشيء وصولاً لتحقيق أغراض اجتماعية أخرى ، وهذا الكشف يوضح ذلك:

١- كلفت ميزانية المشروع أكثر من مليون دولار أمريكي، وهو سخاء عرفت به السلطة الثقافية السويدية، وبشكل خاص لما يتفق وهذه السياسة. ثمانية عشر، ما عدا كادر الإدارة والعشرات من طلاب المدارس والشباب المستقطبين أو المتطوعين لتنفيذ الأعمال الفنية التشكيلية ورسم التصورات الممكنة لإخراج الأفكار المقترحة.

٣- استغرق الأعداد للمشروع(عملياً) ستة أشهر، بما فيها جلسات المناقشة والإسماك بالخطوط العامة للأفكار المقترحة نظرياً وعملياً(أدائياً) والتي من الممكن تنفيذها. وكانت أيضا من أهدافه غير المعلنة (غير الثقافية) توفير فرصة عمل للكوادر العاطلة. وإن كان هذا المشروع الفني يندرج ضمن مفهوم الفعل التشكيلي الاجتماعي، فقد سبقته العديد من المشاريع التي تقترب أو تبتعد نياتها العامة بعض الشيء عن ذلك. مشاريع أشركت المتخلفين عقليا والمعاقين في المشاركة بعض الأعمال الإنسانية المشهمة أو المغترية داخليا وخارجيا، في مسعى لاكتشاف الذات وتصالحها مع الآخر.

بيت الأحلام : مؤسسة ثقافية اندماجية سويدية تأسست في مدينة مالو منذ عدة أعوام بالتعاون مع الاتحاد الأوربي ويهدف إدماج الجاليات المهاجرة ثقافيا . وتساعدت انشطتها وتوسعت بنشاطها عاما بعد عام . فبعد أن كانت تضم ثلاثة فنانين (تشكيلي، موسيقي ومسرحي) عدا الإدارة، أصبحت الآن تضم العديد من الكوادر الفنية والإدارية الاحترافية، وتقدم كل عام نشاطاً خاصاً بها، ومساهمة فنية في مهرجان مدينة مالو السنوي، إضافة إلى استقطابها على مدار السنة الطلاب والشباب في استوديوهااتها الفنية المختلفة.

بدائية وبقلوب ملونة. أجساد متشكلة من مساكات جبل الغسيل ، خشب رمال أصباغ وحاويات ورسوم ابتكرها نشاط اجتماعي غير احترافي ، حرقتها تكمن في طفغان الصورة التشكيلية لدى محيط مكتظ بتفاصيلها، وبذوات فطمت على الإفصاح عن مشاعرها وخبايا نفوسها. شجاعة أدبية هي درهمهم الأول الذي يهينهم ذوات اجتماعية. (انظر إلى فوق...والى الكون...والى نفسك

هذا ما يجبرني على أن أكون في مجال (رؤيتك) مواجّهون للفعالية الجسدية الإيقاعية لخمس شابات في الفضاء الثاني، اختزلت حركاتهن مراحل مرور أزمنة تحولاتهن الاغترابية لتنتهي بان تواج كل منهن واحدا منا في فعل رصد ثابت تحول إلى منولوج كشف باطني مزدوج. لقد هيا الفعل الإيقاعي والصمت المحدد للحظات تحاطرية مرت كالبرق مخلفة أثرا غائما. ومن ممر الشعر أيضا إلى الفضاء الصوتي(الفيديوي) وصدمة الواقع الذي أقحمنا فيه في احد شوارع المدينة العتيقة وبمحاورة تحاول القبض على عصب الهجرة والفعل الاندماجي اختلط فيها أداء الشخصية المهاجرة المستجيبة أو

تحول إلى عمل خراب في متشعب المسالك، احتوى التشكيل، الأداء الجسدي والأكروبات، الفيديو، الصوت والصورة. وتقوده مسارب نصوص شعرية(هي الأخرى تجريبية معملياً). وتحول الفضاء المفتوح إلى ممرات وهاليز، صممت لتوائم التصور أو مقترحاته.

ما إن يفتح باب العرض حتى نفاجا بشخصين أو أكثر أحيانا ينبتون من قيادتنا وعلينا الامتثال لأوامرهم، بعد ذلك يقودون عددا محددا منا في دهاليز العرض التي تتفتح ممراتها واحدا اثر آخر. لقد حجزت الإنارة المشغولة بفعالية مساحات العرض الهائلة والمتخفية بعضها من البعض، وكان لدينا الأخر أبيات شعر تتخلل عوازل المرات. (بعض.. طلب..رفاهية

رغبة أن تتصق بنا وباعاقتنا) ورشة بناية(بيت الأحلام) وفضاء العرض شكله عريت الشباب بأعابهم التشكيلية التجميعة والإنشائية. أسرة تقططها علامات وأشياء الحب وأثار الطفولة. أفرشة مكتظة بحمولاتها من أوراق الصحف والمجلات المستهلكة ونثار القطن الملون أو العنصر (بندوب قابلة للعطب)، أشكال خشبية(فورمات) آدمية بيهيكلية

السويدي. بعد ما تعد بناية منشأة ميناء هذه المدينة فاعلة نتيجة للتحويلات السياسية الاقتصادية للمدينة، خصت هذه البناية العملية للسلطة الثقافية بشكل من الأشكال أحيانا. وتم احتواء فضاءاتها عروضاً مسرحية مبتكرة موازية لفضائها المفتوح، والذي احتضن كذلك فعالية بيت الأحلام(لقينا الضائع). (إن الواقع لاشيء

عليا النجار

فنان عراقي

لم يعد الفضاء المدني السويدي مغلقا على مضاعيل الثقافة الاسكندنافية بتفاصيلها الممومة بفضاءات فيشبية ، بل بات(في زمن اختلاط الثقافات المهاجرة) يكتظ بتفاصيل ثقافية أثنية(أوربية، أوسطية، افريقية، لاتينية أو آسيوية)، وإن جاءت الهجرة متأخرة ، فإنها ومع ذلك شكلت قدرا وامتحانا لقدرات اجتماعية استيعابية تجاورية. وليست تجاوزية إلا في حدود، مع ذلك فإنها تبقى ولأمد زمني مرهونة بضوابط الاندماجي الاجتماعي. بسلطته السياسية والاجتماعية، إن لم تكن هذه الضوابط كليانية فهي مرهنة لعدم تحورها حول قطيعة مطلقة. للسياسة الثقافية الاندماجية في بلد مثل (السويد) مسارب عديدة، وإن كان معظمها مهنيا، فإنها لم تغفل الهاجس النقابي كمنشآت مكرس لأثنيات عديدة متعايشة في هذه الرقعة الجغرافية. وهي على قدر من الموضوع في سياسة دعم جمعيات المهاجرين الثقافية(بشكل عام). ومع ذلك ورغم اختلاط اللغات وتنوع الفعاليات. لا يمكن إغفال دور خطاب المؤسسة الثقافية المركزية من خلال عروض المسرح والسينما بشكل خاص. وإن كان من دور للتشكيل فهو يبقى في حدود ضيقة. لكن مشروعنا الذي سوف ننوه عنه يبقى استثناء، لكونه نتاج مؤسسة اندماجية تدعى(بيت الأحلام). فهذه المؤسسة الثقافية الرسمية التي تأسست منذ عدة سنوات في مدينة (مالو) الجنوبية بشروط اندماجية في منطقة هي الأكثر اكتظاظاً بالمهاجرين (روزنكورد) قدمت في مايس من العام الماضي عرضا اشتمل على بعض من المسالك المفتوحة لسياسة المفهوم الاندماجي السويدي.

بعد ما تعد بناية منشأة ميناء هذه المدينة فاعلة نتيجة للتحويلات السياسية الاقتصادية للمدينة، خصت هذه البناية العملية للسلطة الثقافية بشكل من الأشكال أحيانا. وتم احتواء فضاءاتها عروضاً مسرحية مبتكرة موازية لفضائها المفتوح، والذي احتضن كذلك فعالية بيت الأحلام(لقينا الضائع). (إن الواقع لاشيء

ولقينا الضائع) هذا العنوان الغرابي

عمقها الداخلي وفهمها للبيئة العراقية عبر لقائنا به في ذلك الفيلم مع بعض طلابها الخراف ماهر السامرائي ود. أياد الحسيني والنحات عبد الكريم خليل الذي رافق رحلة الذهاب إلى عزلتها في المرة الأولى من أجل الإعداد لشريط الفيلم وهو يحكي بالصور القديمة - الوشيقة جوانب من حياتها النابضة والطرية. حيث استغرق منا عدة أيام ليست سهلة على الإطلاق لأسباب رافقت انجازها على هذا القدر من العفوية والبساطة بل حتى الشعرية، وإن كانت مؤلمة وحزينة - والتي كانت توازي اعمالها الفنية بقدرة استعمالها تقنيات وأفكارا لمواضيع انسانية بخاص وعي تعبيرى رفيع يليق بحجم سمعتها وتأثيرها وتأثرها بمدرسة بغداد على من تلا جيل ما بعد الرواد. ها قد مضت أربع سنوات وعدة أشهر على مجسات قلب الممسة الوفية التي

لامست جوانب وتكريات من حياة إحدى رافدات الأبداع. كان قد لوح لها الزمن بذاكرة ناقد وكاتب ووثقت لها العنوسة وبض الكلمات حين أندلعت توابك خطوات "نزوية سليم" في عرين عزلتها وغموض ما ينظرها بسبب الغموض والمرض والوحدة، فالإنسان كما يقول أحد الفلاسفة "هو الكائن الوحيد الذي يستشعر الوحدة، وهو الوحيد الذي يعنى حياته في بحث عن الآخر". فاي آخر كانت تبحث عنه "نزوية" غير الرسم وهو يغير حياتها هكذا إلى جانب مثال "نصب الحرية" بهامش هو الآخر يداني البحث عن الخلود - فالزمن من الزمن حتماً لا يعنى المزيد من الخلود... ما دام الهم الحقيقي يلقه المجدي والإبداع يرسمان خطأ موازياً للحياة وعلى مقاييسها، لأن على الحياة أن تعضي، والحياة هي نحن...

هل لنا بعد حزن حكاية إنجاز ذلك الفيلم، قبل رحيل الفنانة "نزوية سليم" بشريط آخر لفيلم بعد الرحيل نستكمل فيه جوانب وإطلالات من لواعم ما أرسى رواد التأسيس، هكذا على سجية مهمهم وفهمهم وحسن نيات تطعاتهم نحو فهم أكيد لحاضر الفن وماضيه القريب؟! أم ان يبقى طائعين لمرامي ومقدرات الصدفة، التي أخذت بنا نحو مراهق وتخوم ما أنجزت هذه الفنانة الكبيرة وجننا اليوم نكتب رثاء لها ولكن بصيغة التذكير وبنحزها وأهمية فعلها الفني والإنساني.

نزوية سليم.. قبل الرحيل.

من أراجيح الطفولة.. حتى أوجاع العزلة

الحرية - على براعته في المنظور وحساسيته للون واقتصاده الموفق له، وكان له ولولديه سعاد وجود يد طولى في تأسيس أول جمعية فنية في العراق "جمعية أصدقاء الفن" عام ١٩٤١ ونزار سليم ونزهة، أحو جواد وأخته الأصغرنا كلاهما رسام معروف، فضلا عن أخيه الأكبر سعاد.

لم أذهب وحدي إلى منزلها الذي كان يجب ان يكون متحفا ل(جواد) واعماله كما ذكرت ذلك في نهاية ذلك الفيلم الذي حمل عنوان "نزوية سليم.. من فيوضات الطفولة إلى أوجاع الشيخوخة" وأنا أقف أمام عدسة الصور (فاضل العياشي) في حديقة عابسة، يابسة، من فرط الأهمال وطفان الوحدة ويقايا أبيض زرعت فيه الضئانة الكبيرة نزوية مجموعة من فرش الرسم سهوا - ربما - أو تعويضا لا شعوريا لعنى دال ومؤثر وحقيقي أنهى به المخرج "وديع نادر" ذلك الفيلم الذي أنتجته رائحة ومشكورة (قناة كردسات الفضائية)، احياء ورفقانا لهذه الفنانة الرائدة، حين تم عرضه في ايلول عام ٢٠٠٣ ليكون وثيقة غارقة بالصدق والتذكير بها على نحو أحياء مجددا جدارة فعلها وأهمية دورها حين استطاعت ان توابك الحركة التشكيلية في العراق. منذ بداياتها حيث تخرجت في معهد الفنون الجميلة / بغداد، ثم انتهت بعد ذلك دراستها العليا في "البوزار" باريس (١٩٥١) فضلا عن نشاطها التدريسي التربوي كاستاذة وفاعلة في معرض جماعة بغداد للفن الحديث، ولتوابك الدراسة في إيطاليا وتكون زميلة للفنان الكبير سعد الطائي الذي أشاد بدورها وروحها وصدق



الراحلة نزوية سليم